مَوْسُوعَةُ فَوَائِدِ القُرآن الزكِيَّة

سُورَةُ المُلْك

أ.د خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

موسوعة فوائد

القرآن الزكية

سورة الملك

أ.د. خالد بن حامد الحازمي

أستاذ الدراسات العليا بالجامعة الإسلامية سابقاً

فوائد سورة الملك

﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾

﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ
وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ
هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ زَيَّنَّا
ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴿٥﴾﴾

افتتح الله تبارك وتعالى سورة الْمُلْك بالتعظيم والتمجيد لذاته عَزَّ وجل، وبيان عظيم ملكه وعظيم قدرته التي استوعبت كل شيء. فقال تعالى ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ ابتدأت وانطلقت الآية الكريمة بقوله عَزَّ وجل ﴿تَبَٰرَكَ﴾ التي تفيد التعظيم والتقديس لذاته سبحانه وتعالى على كمال وعظيم ملكه، وعظيم قدرته التي خلق بها السماوات والأرض، وخلق هذا الإنسان وخلق معه الموت والحياة، من أجل إظهار الأحسن عملاً من عباده. فتبارك الله عَزَّ وجل الذي له كمال كل شيء. قال الفراء رحمه الله تعالى: إن تبارك وتقدس في العربية واحد، ومعناهما العظمة، وقيل المعنى: تبارك عطاؤه، أي: زاد وكثر. وقال العلماء: هذه اللفظة لا تستعمل إلا لله سبحانه وتعالى، ولا تستعمل إلا بلفظ الماضي[١] فعَظُم سبحانه وتعالى في أوصافه وأسمائه وأفعاله، وعَلَت عظمته وقدرته وجلاله، وتزايد خيره وتكاثر، وحَلَّت وعَمَّت ودامت بركته وكثر خيره وفضله وإحسانه، فهو رب العالمين الذي له الخلق والأمر. فتقدس وتنزه وتعالى وتعاظم.

فبعد دلالة التمجيد ﴿تَبَٰرَكَ﴾ أورد سبحانه وتعالى الاسم الموصول ﴿ٱلَّذِي﴾ ليعطي دلالة تخصيص الانفراد بالملك له وحده لا شريك له ﴿ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ أي: بيده كمال السلطان والقدرة. قال ابن عباس رضي الله عنهما: يعني السلطان، يُعِزُّ ويُذِلُّ[٢] فله كمال الملك بالخلق والإنشاء والتصريف. وبالتالي فإنه عَزَّ وجل يُعز من يشاء، ويذل من يشاء، ويبسط الرزق لمن يشاء، ويقدره على من يشاء من عباده. فله

(١) الشوكاني، فتح القدير (٦٠/٤)

(٢) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٥٨/٨)

كمال الملك بالخلق والإنشاء والتصريف والتقدير، وليس لأحد من الخلق ذلك. وبهذا فإن دلالة عظمة الملك تدل على الغنى التام عن كل مخلوق ومُعين، وبهذا انتفى الولد والشريك في الملك، وثبت الانفراد بالخلق والتقدير لما خلق عَزَّ وجل. فهو المالك لكل شيء، والمتصرف فيه بما يشاء، وكيف يشاء، ومتى يشاء.

وقد ورد البيان للمُلك بصفة كمال التملك ﴿ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ أي: إثبات الكمال والعلو والرفعة والقدرة والسلطان والقهر والعزة، وإثبات جميع حقيقة أسماء الله تعالى وصفاته عَزَّ وجل. فهو المالك لكل شيء، والمتصرف فيه بما يشاء، وكيف يشاء، ومتى ما يشاء. فالكون كله ملك لله تعالى، فلا شريك له في ملكه عَزَّ وجل.

ثم يرتقي البيان بالإخبار والإعلام عن كمال القدرة الربانية على كل شيء يريده عَزَّ في علاه. فقال تعالى ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ فربكم على كل ما يريد قدير. فلا يعجزه شيء. فيقرر سبحانه وتعالى لجميع العباد بأنه عَزَّ وجل لا يعجزه شيء، وأن كل شيء تحت قدرته وسلطانه وقهره، ومن ذلك أرزاقهم، ونصرهم وتمكينهم في كل شأن من شؤونهم. فلا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، بما يفيد التطمين، والترغيب في طاعته جَلَّ جلاله، وتعظيم شأن ربهم. وزيادة إيمانهم. وكذلك التحذير من معصيته، فإن قدرته عَزَّ وجل تشمل كل شيء، فاطلبوا عونه ليعينكم وتمكينكم مما تريدون من الخير، وأن لا تيأسوا، واحذروا مخالفته سبحانه وتعالى.

وقد أورد تبارك وتعالى كمال القدرة له عَزَّ وجل بصيغة المبالغة ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ التي تفيد امتداد المعنى إلى أقصى غايته وكماله. كما استهل البيان باسم الإشارة ﴿وَهُوَ﴾ لإفادة: الحصر والقصر على أن ليس لأحد هذه القدرة المطلقة إلا هو العزيز الرحيم، بل إنها له سبحانه وتعالى حصراً وقصراً فقط. وأن أمر وشأن قدرته تبارك وتعالى ممتد لكل شيء، وفي كل زمن، وفي كل مكان، فهي تعطي معنى كمال القدرة على كل شيء، مع اتصال الزمن من غير انقطاع، وذلك لكمال قدرته تبارك وتعالى، ولتعطي معنى الإخبار عن الصفة الدائمة المستمرة ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ التي لا تنقطع ولا تتوقف، لا سابقاً ولا لاحقاً.

وقد أفاض قوله تعالى ﴿تَبَـٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ أفاض كمال التنزيه وكمال العظمة لربنا عَزَّ وجل، فهو الذي له كمال الملك، وبالتالي فإن الجميع هم خلقه وعبيده، وبالتالي فهو مُنَزَّه عن كل شبيه ومثيل وشريك بدلالة عظيم وجلالة خلقه، وعظيم قدرته سبحانه وتعالى. فإن لله المنة العظيمة بهذا الكتاب المنير، والحجة البالغة لكل العالمين. فقد أنعم جَلَّ جلاله على عباده بهذا القرآن العظيم. فله تبارك وتعالى التعظيم والتبجيل والطاعة على هذا الإنعام، وله عظيم الثناء والحمد والشكر، فقد كثر خيره وعطاؤه، وبركاته، وجميل تدبيره، وكمال ما أنزل على رسوله صلى الله عليه وسلم.

وبعد أن أظهر جَلَّ جلاله عظمته، وقدسيته، وكمال ملكه وتدبيره وعظيم سلطانه، ينتقل جَلَّ جلاله بالْمُخَاطَبين إلى إنشائهم وخلقهم، وشأن إيمانهم وكفرهم، والموت والحياة، وما هو متعلق بها من الابتلاء والاختبار، ليظهر بذلك تمايز العباد، وأحسنهم طاعة له عَزَّ وجل، وكمال عزته ومغفرته لمن تاب وأناب. فقال تبارك وتعالى ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴾ فربكم هو الذي خلقكم، وليس لغيره الخلق، فهو ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ ﴾ والموت هو الحالة التي يفقد به الإنسان الحياة. وأما الحياة فهي التي تمثل الصفة المضادة للموت. وذلك بوجود الروح في الجسد، والموت بخروج الروح من الجسد. وبالتالي فليس لأحد القدرة على إيجاد حياة نفسه أو غيره، وليس لأحد القدرة على منع الموت عن نفسه، أو عن غيره، مما يفيد كمال الملك لكم أيها الناس من خالقكم الذي خلق الموت والحياة، وأنكم عبيد لربكم. مما يستوجب توحيده وإفراده بالعبادة، واتباع وطاعة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم.

ومن دقائق البيان أن الله تعالى قَدَّم الموت على الحياة ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ ﴾ لأن الموت هو العدم، وهو الأصل، فكان الإنسان عدماً قبل وجوده، ثم حصلت لهم الحياة، ثم الموت، ثم الحياة بعد الموت بالبعث والنشور. فقد كانوا قبل الحياة لا وجود لهم. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: فسمى الحال الأول وهو العدم موتاً، وسَمَّى هذه النشأة حياة[١] وقال الشوكاني رحمه الله تعالى: وقدم الموت على الحياة، لأن أصل الأشياء عدم الحياة، والحياة عارضة لها[٢] مما يبين عظمة بيان كلام الله تعالى حتى في دلالة التقديم والتأخير، ليظهر بذلك كمال الإعجاز في كل شيء، حتى في دقائق البيان، وترتيب الألفاظ.

بل إن دلالة الموت تشمل حتى ما يكون من النوم، كما قال تعالى في سورة الزمر ﴿ ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا ۖ فَيُمْسِكُ ٱلَّتِى قَضَىٰ عَلَيْهَا ٱلْمَوْتَ وَيُرْسِلُ ٱلْأُخْرَىٰٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴾ يخبر الله تعالى بأنه هو الذي يقبض الأرواح. والأنفس هي الأرواح، والموت يكون حين مفارقة الروح للبدن، وهي المفارقة التي تزول بها حياة الإنسان. وهي الموتة الكبرى. فموت الإنسان هو بإرادة الله تعالى المطلقة، وفق ما حدد لكل أحد من عباده من العمر الذي يعيشه في الدنيا.

وأما التي لم تمت الموتة الكبرى وهي الحالة الأخرى، فإن الله تعالى يقبضها ولكن ليس قبضاً نهائياً، بل قبضاً مؤقتاً، بدليل إحساس النائم بقدر محدد من الإحساس، وانعدامه بقدر محدد، فلا يرى ما يدور

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤/٤٢٢)

(٢) الشوكاني، فتح القدير (٥/٢٥٨)

حوله، وقد لا يسمع ما يكون من الأصوات الخفيفة التي تكون في مدار سمعه، وفي نفس الوقت يوقظه الصوت، ولمس وإمساك بدنه. فيكون التواصل بينه وبين روحه متواصلاً، وليس في انقطاع تام كمن يموت موتته الكبرى. وكذلك ليست صلة الروح بالنائم كصلتها بالمستيقظ. ولذلك قد سَمَّى الله تبارك وتعالى النوم وفاة. كما قال تعالى في سورة الأنعام ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَتَوَفَّىٰكُم بِٱلَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِٱلنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰٓ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٦٠﴾﴾ فهذه صورة لحالة من حالات الإنسان الباهرة العظيمة، فإن الله تعالى هو الذي أخذ هذه النفس مدة نومها، ثم أعادها لتعود كما كانت من الحركة بعد السكون الذي عَطَّل الوعي عنده، فعادت إلى الشعور بعد عدمه. وبالتالي يعيدها بالبعث يوم القيامة، كما أعادها بعد نوم النائم.

ثم ذكر تبارك وتعالى علة وسبب خلق الموت والحياة. فهو الذي خلق الموت والحياة لسبب وهدف وغاية ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ ليختبركم أيها الناس، حتى يظهر من يكفر ويجحد، ومن يُصَدِّق، ويُؤمن، ويستجيب، ويعتبر ويطيع، ويظهر التفاوت في الطاعة وفي حُسن العمل، وكذلك يظهر من يكذب، ويطعن، ويكابر، وينافق، ويعصي، فيظهر من يكون عمله خالصاً لله ربه سبحانه وتعالى، ووفق منهج رسوله صلى الله عليه وسلم، مما يستوجب على العباد التأمل والتفكر والاستدلال على كمال قدرته سبحانه وتعالى، وعلى حقيقة البعث بعد الموت، والحساب والجزاء، فإن من يملك هذه القدرة على الخلق والتدبير فإنه لا يعجزه بعث الأموات، ثم الحساب والجزاء، فلا موقع لامتناعها ولا لصعوبتها أبداً وقطعاً. فإن كل آيات الله تعالى تخبر بكمال قدرة العزيز الرحيم. ومن غزارة البيان ورحابته أن استوفت دلالة ﴿أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ جميع أنواع العمل من الطاعات، وبما يحفز ويدفع المؤمن للتسابق في تحصيل الأحسن من الأعمال، التي يتحقق بها إرضاء الرحمن، فلا يكتفي بأداء الواجبات، بل يتلمس الإحسان في كل شيء.

وهي قاعدة للمؤمن عند أدائه لمسؤولياته، بأن يستحضر قوله تعالى ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ وقاعدة عندما تتقهقر به نفسه نحو الإجحاف، فيناديها بقوله تعالى﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ وهي قاعدة عندما تُسول للإنسان نفسه بالتقصير، فيستقوي بدلالة قوله تعالى ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ وهي قاعدة في ابتغاء رفعة المنزلة عند الله تعالى ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ وهي قاعدة في الاستجابة لنتيجة اختبار الله تعالى للعبد ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ فهي قاعدة ثرية في كل باب يدفع للخير ويمنع عن التقصير، أو الدخول في دوائر الشر.

ثم ذكر ربنا تبارك وتعالى اسمين وصفتين عظيمين من أسمائه وصفاته جَلَّ في علاه، فالأول: إن ربكم هو المتصف بكمال العزة ﴿ٱلْعَزِيزُ﴾ أي: الغالب والقاهر لجميع الأشياء، فليس مثله شيء في العزة والانتقام والقهر والغلبة، بما يفيد أن كل من يريد أن يتعالى على الله عَزَّ وجل وعلى كتابه القرآن العظيم، وعلى رسوله صلى الله عليه وسلم، وعلى دينه العظيم، فإن مآله إلى الهزيمة والذلة والخسارة. لأن الله تعالى عزيز ومنتقمٌ ممن يكفر به، ويُعاند نبيه صلى الله عليه وسلم. فهو عزيز منيع الجناب، عظيم السلطان سبحانه وتعالى. وصفة العزة تتضمن القوة الكاملة، والقدرة القاهرة، فهو غالب على أمره سبحانه وتعالى. فينتقم ممن يكذب بآياته، ويُكابر بعد علمه بها، ومعرفته بما جاء فيها، فيخالف ويعاند نبيه صلى الله عليه وسلم.

وأما الصفة الثانية: أنه تبارك وتعالى ﴿ٱلْغَفُورُ﴾ فإن الله سبحانه وتعالى هو الذي يقبل التوبة، ويغفر ويرحم، لأنه غفور لمن تاب، ورحيم بمن أناب إليه، ورجع عما كان عليه من الذنب، فيرفع عنه جزاء إثمه ومعصيته، ويقبل توبته برحمته تبارك وتعالى. كما أن من دلالتها أن الله تعالى كثير المغفرة، لأن ﴿ٱلْغَفُورُ﴾ من صيغ المبالغة، فإنه سبحانه وتعالى يرحم عباده المستغفرين التائبين. بما يفيد أن الله ربكم ﴿ٱلْغَفُورُ﴾ يغفر لكم ويرحمكم إن عدتم إلى رشدكم. وفي هذا تشجيع لكل مذنب ومقصر بأن يتجه إلى الاستغفار والتوبة والإقلاع عن المعصية، واستبدالها بالخير. وهو أعظم وسيلة ودافع من الله الغفور الرحيم سبحانه وتعالى لإصلاح النفس والسلوك والنهج. فالحمد لله رب العالمين على هذه النعمة الجليلة، بأنه عَزَّ وجل غفور رحيم. فلا يأس ولا قنوط من رحمة الله تعالى مهما بلغت الذنوب مع التوبة واستبدال الشر والمعصية بالخير والطاعة والامتثال.

وقد أفاد سياق قوله تعالى ﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ أنه هو سبحانه وتعالى المتفرد بكمال العزة والمغفرة لعباده، وليس ذلك لغيره. وكما أن لربكم كمال العزة فإن له كمال الرحمة. كما أفاد سياقها المبالغة في العزة، والمبالغة في المغفرة، فهو العزيز، ويعز من يشاء، ويذل من يشاء، وهو الغفور الذي يغفر ولا يبالي، بل إنه تبارك وتعالى كثير المغفرة. فاستغفروه وتوبوا إلى ربكم العزيز الغفور.

ثم تدرج البيان إلى تفاصيل إبداع خلق السماوات التي يلزم من العباد أن يتأملوها، لأن في تأمل خلقها ما يجعل الإنسان يُذعن لربه وخالقه بما يرى ويشاهد من عظيم الملكوت، ودقة وجمال وعظمة وهيبة الخلق، والتي تدل على عظمة وهيبة الخالق سبحانه وتعالى. فقال عَزَّ وجل ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ إن الله ربكم هو لا غيره الذي خلق سبع سماوات ﴿طِبَاقًا﴾ أي: بعضها فوق بعض. وبدأ البيان الكريم بتخصيص الخلق بالاسم الموصول

﴿ٱلَّذِى﴾ لتخصيص الانفراد بالخلق، بأن الخلق له وحده لا شريك له عَزَّ في علاه ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ فهن سبع سماوات متكاملات في الكمال والجمال والإتقان، حتى أن من يراها لا يجد فيها اضطراباً واختلافاً، فقال تعالى ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ فمن ينظر إليها متأملاً، فإنه لا يجد فيها تنافراً، ولا اضطراباً. فاستهل البيان في إثبات قوتها ورصانتها وكمالها بنفي جميع العيوب ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ فقد جمعت دلالة نفي التفاوت كل عيب يخص خلق السماوات، فمن نظر إليها أبهره جمالها ورصانتها وقوتها، وارتفاعها من غير عمد تعتمد عليه. بما يدل على عظمة الخالق عَزَّ وجل.

ثم يؤكد سبحانه وتعالى ذلك بأن حث الْمُخَاطَبين بإعادة التأمل ﴿فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ﴾ أي: أعد النظر، وكرر توجيه البصر إلى السماء، لأجل إعادة الفحص والتفحص، من غير تحديد للإعادة والتكرار. حيث ورد الأمر بالإعادة مطلقاً ﴿فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ﴾ لإفادة المبالغة في تكرار النظر والتفحص لها، وكذلك المبالغة في دقة خلقها، وفي تعجيز الناظر من أن يجد خللاً ولو بسيطاً. بما يثبت عظيم وعظمة الإبداع، وكمال خلق السماوات.

ثم يوجه سبحانه وتعالى سؤالاً تقريرياً، يقرر به أن من سيكرر النظر في السماء فإنه لن يجد فيها ما يَعِيبها ﴿هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ هل ترى فيها صدوعاً، وشقوقاً، وتعرجاً، وفروجاً والتواء؟ فإنك أيها الْمُخَاطَب لن تجد أي شيء من ذلك. فهو سؤال يقرر به عَزَّ وجل كمال خلق السماوات. مما يستلزم تسبيحه عما لا يليق به، وتوحيده، وطاعة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم. ففي ذلك بيان لعظمته وجلاله تبارك وتعالى، بدلالة عظيم ما خلق من السماوات، حتى يدرك العباد بأن الله تعالى هو مالك الملك، وخالق الخلق، وأنه على كل شيء قدير. وأنه قد أحاط بكل شيء علماً وقدرة.

ثم يؤكد تبارك وتعالى كمال ودقة خلقه بتكرار الأمر للعباد بأن يكرروا النظر بالتأمل والتفقد للسماء، فإنكم لن تجدوا إلا ما ينخسئ به البصر. حيث قال تعالى ﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ فارجع وأعيد النظر مرة بعد مرة، فسيعود عليك بصرك أيها المتفقد للسماء بالخيبة والخسارة، لأنه لن يجد ما يعيب السماوات من شيء. وقد بدأ البيان بحرف ﴿ثُمَّ﴾ الذي يفيد الترتيب، والانتقال من التوجيه الأول: في البحث عن وجود أي نوع من الفطور، وهو قوله تعالى ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ ثم التأكيد بالتوجيه الثاني: ﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ أي: ثم أعد

التأمل والتفقد ﴿كَرَّتَيْنِ﴾ أي: مرة بعد أخرى. قال القرطبي رحمه الله تعالى: لأن معناها رجعتين. أي: مرة بعد أخرى. وإنما أمر بالنظر مرتين لأن الإنسان إذا نظر في الشيء مرة لا يرى عيبه ما لم ينظر إليه مرة أخرى[١] ففي التوجيه الأول ورد الأمر بالنظر مطلقاً ﴿فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ﴾ وفي المرة الثانية بالتثنية ﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ لإفادة المبالغة. فإن كررت النظر فلن يعود البصر إليك إلا وهو كليل من أن يجد عيباً ولو بسيطاً. فقال تعالى ﴿يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ يعود إليك البصر بحالتين: الأولى: ﴿يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا﴾ يعود إليك بصرك خائباً، صاغراً وذليلاً وكليلاً. والحالة الثانية التي تجتمع مع الحالة الأولى أنه يعود عليك ﴿وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ يعود إليك بصرك مع ما سبق من الصغار والذلة بأنه ﴿حَسِيرٌ﴾ أي: كليل، قد انقطع عن أن يجد ما يريد ويبحث عنه من العيوب، فيعود البصر كليلاً، ومنقطعاً من أن يجد مراده. بما يفيد أنه لن يجد من يبحث ويتأمل في السماء إلا الجمال والكمال والعظمة والهيبة والرهبة لخالقها الذي أبدعها سبحانه وتعالى. مما يفيد أن كمال الملك والخلق هو لله تعالى أيها الناس، وما أنتم إلا عبيد لربكم. مما يستوجب منكم توحيده وإفراده بالعبادة، وطاعة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم. ومن ذلك الإيمان بالبعث بعد الموت، وما يتبعه من الحساب والجزاء.

ثم يتدرج البيان الكريم إلى لفت انتباه العباد إلى جمال السماء، بعد أن لفت انتباههم إلى عظمتها، وخلوها من كل عيب. فقال تعالى ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾ فإن مِن جميل خلقنا وتدبيرنا أنا جَمّلنا سماء الدنيا بالكثير من الكواكب، التي هي مصابيح للأرض بضوئها البديع المبهج ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ فلقد زينا السماء الدنيا بعظيم المصابيح، التي هي النجوم والكواكب، وقد نعتها وسماها سبحانه وتعالى بالمصابيح. باعتبار إضاءتها بنورها الذي ازدانت به السماء.

وتعني دلالة الزينة في قوله سبحانه وتعالى ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ التحسين والتجميل، وأن هذا التجميل والتزيين لمقصد وغاية، وهو من أجل سرور العباد بالنظر، لأن كل تزيين هو لهدف ومقصد وغاية. لتشمل بذلك دلالة الزينة لفت انتباه نظر العين إليها بالإبصار فيها، وكذلك تشمل نظر البصيرة بالتأمل والتفكر للاعتبار، والذي يستدل به على عظمة خالق هذا الكون العظيم، فإذا نَظَرَ الناظرُ إليها ببصره هاله وأعجبه حُسْنُها وجمال لونها، وتنوع أحجامها، وكثرتها، مع اختلاف مواقعها وحركتها، واجتماع

---

(١) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٨/١٣٧)

بعضها، وتفرق بعضها، وإن نظر إليها الناظر ببصيرته حصل له بها الاعتبار الذي يهتدي به إلى الإقرار بأن لهذا الكون خالق واحد سبحانه وتعالى، وأنه عظيم في تدبيره وخلقه، وتشريعه، وأنه لا معبود بحق إلا هو عَزَّ وجل، واستدل بذلك على عظمته جَلَّ جلاله، وأنه على كل سيء قدير، مما يدفع إلى الإيمان بالغيب كله.

ومن دقائق السياق أن استهل سبحانه وتعالى البيان بحرف ﴿ وَلَقَدْ ﴾ المسبوق بلام القسم. والذي أفاد التأكيد لما بعده من بيان، ثم أضاف تبارك وتعالى إلى مهام المصابيح التي منها الزينة أنها رجوماً للشياطين. فقد أضاف إليها مهمة قتالية عظيمة فقال سبحانه وتعالى ﴿ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ ﴾ فَتَرْجُمُ من حاول القرب منها. فإن الله تعالى يرجم بها من يريد أن يسترق السمع من شياطين الجن. فجعل لها قوة وإحراقاً. مما يبين حفظ الله تعالى وعنايته لِمَا خلق من السماء وما فيها، وأن كل مخلوقاته هي جُنْدٌ له عَزَّ وجل، فيسلط ما يشاء على من يشاء ﴿ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ ﴾ فحفظ الله تعالى السماء من كل شيطان، وذلك برجمهم بالنجوم الحارقة. فإنهم مرجومون بالطرد والإبعاد. قال أبو عبيدة رحمه الله تعالى: الرجم: المرجوم بالنجوم[١] فالشياطين مرجومون بالنجوم. مما يعني أن من تجرأ منهم فإن الله تعالى يُتبعُهُم بشهاب حارق، ببريقه الواضح للأعيان، بما يعني أن الله تعالى حفظ السماء من الشياطين التي تسعى لسرقة المسموع من الكلام في السماء.

بل قال الله تعالى عن ما أعده لهؤلاء الشياطين ﴿ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ ﴾ أي: رتبنا لهم في الآخرة ﴿ عَذَابَ السَّعِيرِ ﴾ وهو عذاب النار التي تستعر عليهم، بما يفيد شدة وهَول العذاب، ودرجته ونوعه. اللهم إنا نسألك العفو والعافية، في الدنيا والآخرة.

﴿ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴿٦﴾ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ﴿٧﴾
تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا
وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ
السَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١١﴾ ﴾

وبعد أن أخبر تبارك وتعالى بدواعي وموجبات الإيمان بما خلق من السماوات، وما أظهره وبينه عَزَّ وجل من قوتها وجمالها، وما زينها به من المصابيح، وجعلها رجوماً للشياطين، يتوجه بعد ذلك الخطاب لمن

(١)الشوكاني، فتح القدير (١٢٥/٣)

يعاند بكفره وبجحوده للحق و البينات من الحجج والبراهين، فقال تعالى ﴿ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ وللذين أنكروا وجحدوا دين الله تعالى، فكفروا بربهم وبالمرسلين، فإن لهم في الآخرة عذاب جهنم الذي لا ينفكون عنه أبداً، ولا عنهم ينقطع العذاب أبداً. ﴿ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴾ أي: وبئس المكان الذي يصيرون إليه، وهو عذاب جهنم. وقد أورد الله تعالى التوبيخ لهم بدلالة ﴿ وَبِئْسَ ﴾ التي تفيد وتستوفي كمال الذم للمصير الذي سيؤلون إليه أولئك الكفرة والمنافقين، فليس بعده أعظم منه عذاباً ونكالاً ومصيراً يصيرون إليه.

ثم يخبر الله تعالى بوصف حالهم وحال جهنم عند إلقائهم في النار. فقال تعالى ﴿ إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ﴾ فإذا أُسقِطَ وطُرِح الكفار في نار جهنم، سمعوا لجهنم شهيق، أي: صوتاً عظيماً، مخيفاً، وهي تغلي بارتفاع ألسنتها من اللهب، وتغلي بهم غلياناً عظيماً. فإضافة إلى عذاب أجسامهم بالاحتراق. فقد شمل العذاب كذلك مسامعهم بما يسمعون من صوت شهيقها الرهيب المخيف، وكذلك شمل العذاب أبصارهم بما يرون من تأجج لهيبها وغليانه العظيم في شدته. فإنه وصف واعظ لحال الكفار مع نار جهنم، بما يستدعي الأحياء في كل زمن إلى أن يؤمنوا ويدخلوا في دين الله تعالى، وأن لا يتمادوا في كفرهم.

ثم يزداد الوصف التحذيري للكفار من نار جهنم وللحال التي يصيرون إليها. فيقول سبحانه وتعالى ﴿ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۖ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴾ أي: توشك النار من شدة توهجها أن تتقطع، وينفصل بعضها عن بعض من قوة غيظها وحنقها عليهم. أي حتى النار اغتاظت منهم، بسبب كفرهم بربهم. لأن دلالة ﴿ تَمَيَّزُ ﴾ تفيد التمزق والانفصال ﴿ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ ﴾ أي: كلما يُؤتى بجماعة وفريق من الكافرين، ويتم إلقاءهم في جهنم يسألهم خزنة النار ﴿ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ ﴾ أي: القائمون عليها من الملائكة ﴿ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴾ ألم يأتكم في الدنيا من أحد من المرسلين؟ فينذرونكم من هذا العذاب. سؤال استنكار وتقريع وتوبيخ، وتقرير لهم بما كان منهم من العناد وعدم طاعتهم للمرسلين في الدنيا، فيقررونهم بأنهم كفروا في الدنيا بما جاءهم من الحق. فيجيبون على سؤال الملائكة ﴿ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴾ يقولون: نعم ﴿ قَالُوا۟ بَلَىٰ ﴾ أي: نعم. جاءنا من ينذرنا من هذا العذاب. ثم يؤكدون بالتصريح والإقرار بذلك ﴿ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ ﴾ فيقرون بمجيء المرسلين لهم، الذين هم رُسُل الله تعالى

عليهم الصلاة والسلام. ﴿ فَكَذَّبْنَا ﴾ فأنكرنا ما جاؤوا به، وكذبناهم، وجحدنا ما كان معهم من الحق والبراهين ﴿ وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ ﴾ لم يُنَزِّل الله تعالى من دين ولا حجج. فرددنا الحجج والبراهين بإنكارها ﴿ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ ﴾ أي: جحدنا بكل شيء كان معهم، من الكتب، والمعجزات والآيات والبراهين المؤكدة بأنها من الله عَزَّ وجل. فكذبنا بحجج الله تعالى.

ثم يؤكدون اعترافهم بإنكار الحجج والبراهين، و اتهامهم للمرسلين بأنهم في ضلال ﴿ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴾ فلستم إلا في متاهة من الضلال المتصف بأنه ضلال كبير، مخالف للحق. فوصفوا دين الله تعالى الذي عليه المرسلين بالضلال، فأنتم تريدون أن تضلونا بهذا الدين. بل ورد البيان منهم بأسلوب الحصر والقصر، بأن حصروا منهج الأنبياء في الضلال فقط، أي ليس فيه شيء من الصواب. أي: بالغوا في الصد والعناد والجحود، باعتراف منهم.

ثم يعترفون بأنهم هم الضالون في الدنيا، وليس المرسلين، فقال الله تعالى عن قولهم ﴿ وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ وقالوا لو كنا متعقلين، فاستمعنا لإرشاد المرسلين، وكذلك كنا من أهل العقول الراشدة، ما أصبحنا في من المصاحبين للنار. فقد نفوا عن أنفسهم عندما كانوا في الدنيا وسيلتين يتحقق بهما التعقل والنجاة: أحدهما: ﴿ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ ﴾ وهو الاستماع المفضي للتأمل والتدبر، والاسترشاد. والثانية: ﴿ أَوْ نَعْقِلُ ﴾ وهو عقل الرشد، وليس عقل الإدراك، الذي هو عند كل أحد من الناس، ما لم يكن صغيراً أو مجنوناً، فلا يعقل. فنفوا عن أنفسهم عقل الرشد وليس عقل التكليف. مما يبين أن أهم وسيلتين للانتفاع هما الاستماع والتعقل. ﴿ وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ لو استخدمنا هاتين النعمتين التي أنعم الله تعالى بها علينا لما كنا اليوم مصاحبين للنار. وهذا البيان من حال أهل الكفر ما يُعَلِّم به الأحياء أن من واجبهم أن يتعظوا وينتفعوا من بيان الله تعالى للعباد عن مصير ومآل الكفار في الآخرة، وما هو حالهم في الدنيا من العناد والاستكبار.

ثم يخبر الله تعالى بأنه من خلال هذا الجواب الذي اعترف به الكفار بأنهم أصحاب الباطل في الدنيا، وأنهم نالوا ما يستحقون بسبب كفرهم وجحودهم، وليس ظلماً عليهم. يقول تبارك وتعالى ﴿ فَٱعْتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴾ فقد حصل اعترافهم بما كان منهم من ذنب الكفر، الذي نهاهم عنه المرسلين

بالحجج والبينات. وبالتالي ﴿فَسُحۡقٗا﴾ فبعداً وهلاكاً ﴿لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ للمصاحبين للنار التي تستعر بهم. مما يبين أن مِن عَدْلِ الله تعالى هو اعتراف أهل النار باستحقاقهم لها، بسبب ما كانوا عليه في الدنيا من الكفر.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ١٢ وَأَسِرُّواْ قَوۡلَكُمۡ أَوِ ٱجۡهَرُواْ بِهِۦٓۖ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ١٣ أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ١٤ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولٗا فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ ١٥ ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ١٦ أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ كَيۡفَ نَذِيرِ ١٧﴾

بعد أن أخبر الله تعالى عن حال الكافرين، وما ينالهم من العذاب الأليم، ينتقل البيان من الله العلي العظيم إلى بيان حال المؤمنين. فيقول تبارك وتعالى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾ فإن للمتقين الذين يخافون ربهم في خلواتهم، وفي سرائرهم، وهم لم يروا ربهم سبحانه وتعالى، ويخافون عذابه ولم يروا العذاب، لأنه في علم الغيب، فيخافون عقابه عَزَّ وجل حتى في خلواتهم، حين لا يراهم أحد من البشر، فإن خشيتهم لربهم ملتصقة ومصاحبة لهم في كل وقت وحين، في السر والعلن. فإن لهؤلاء من ربهم تكفير ذنوبهم ﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾ فجزاء هؤلاء مكافأتين عظيمتين: الأولى: ﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٞ﴾ أي: لهم من ربهم أن يمحو ذنوبهم، فلا يعاقبهم عليها بما يستحقون، جزاء لإيمانهم وخشيتهم لربهم، فأطاعوه كأنهم يرونه. كما جاء في الحديث من قوله صلى الله عليه وسلم لمن سأل عن الإحسان. فقال عليه الصلاة والسلام (أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك)[1] والمكافأة الثانية هي: ﴿وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾ وهو دخولهم الجنة. وهما أعظم مكافأة وجزاء يحصل عليها أهل الخشية لله تعالى.

ثم يخبر الله تعالى عن عظيم وعمق علمه جَلَّ شأنه، مهدداً به المنافقين والكافرين، وكل من يعتقد أنه بتستره بالباطل يخفى على الله سبحانه وتعالى. فقال جَلَّ شأنه ﴿وَأَسِرُّواْ قَوۡلَكُمۡ أَوِ ٱجۡهَرُواْ بِهِۦٓۖ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ فيا أيها الناس، سواء أسررتم وتخفيتم بأقوالكم أو جهرتم بها، فإن ربكم الله سبحانه وتعالى عليم بذلك، فلا تخفى عليه منكم خافية. فإنه يعلم ما تُخفي القلوب، وتتكتم عليه الصدور.

---

(١) البخاري، الجامع الصحيح، برقم (٥٠) ومسلم، صحيح مسلم، برقم (٩)

فإن كل إسرار من الأقوال بين إثنين أو أكثر؛ على سبيل التكتم به عن الغير، فهو علانية عند ربكم جَلَّ جلاله. بل حتى ما يُخفى غيره عليه؛ فإنه لا يخفى على الله عَزَّ وجل. فإنه يعلم ما تكتمت عليه القلوب، دون أن تبيح به للغير. فإن الله تعالى ﴿عَلِيمٌ﴾ فإن جميع أحوال التكتم والإسرار، أو الجهر بها، من الأقوال التي يخاطب العبد غيره جهراً، أو سراً بها، أو بما يضمره في قلبه ونفسه، فلا يُطْلِع عليها أحد. فإنها مكشوفة ومعلومة عند الله تعالى ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ فإنه عليم بأبعد من ذلك ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ فكيف بالمنطوق من الكلام. فإن هذا من دقائق علم ربكم بعباده. مما يبين ويوضح سعة علمه جَلَّ شأنه، وأنه لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء، حتى ما يضمره الإنسان في نفسه فلا يتحدث به. فتعاملوا أيها الناس مع ربكم بهذا الفهم.

ثم يتوجه البيان بأسلوب السؤال الاستنكاري، الذي يقرر بالدليل القاطع أنه سبحانه وتعالى هو العليم واللطيف والخبير. فقال تعالى ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ ألا يعلم السر، وخفايا القلوب، وهو الذي خلق الخلق؟ سؤال استنكار لمن كان اعتقاده أنه يستطيع أن يتستر بأعماله. فكيف لا يعلم عَزَّ في علاه والشواهد ظاهرة من أنه خالق هذا الكون، ومنه هذا الإنسان؟ وكذلك هو سؤال يقرر بدلائل الخلق أنه يعلم سرائر وأحوال من خلق. وبالتالي كيف يفوتكم ذلك؟ أين عقولكم؟ سؤال يُعيد الإنسان إلى الحقائق والأدلة المعلومة، ليفهم منها ومن دلالاتها وما تفضي إليه حقيقة العلم والمعرفة بالله تعالى أنه اللطيف الخبير جَلَّ جلاله ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ كيف لا يعلم مَن خلق وهو اللطيف الخبير؟ وهو سؤال يُعَلِّم الإنسان كيف يفكر، وكيف يستنتج، وكيف يحلل، وكيف يقيس. فهو سؤال علم وتعليم لمنهجية التعلم، والارتقاء بقواعد الاستدلال. كيف لا يعلم وهو اللطيف الخبير؟

وقد أكد تبارك وتعالى كمال علمه بأسمائه وصفاته، فيقول عَزَّ وجل ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ كيف لا يعلم وهو اللطيف الخبير؟ قال السعدي رحمه الله تعالى: الذي لطف علمه وخبرته حتى أدرك السرائر، والخفايا والخبايا والبواطن، ومن لطفه أنه يسوق عبده إلى مصالح دينه، ويوصلها إليه بالطرق التي لا يشعر بها العبد، ولا يسعى فيها، ويوصله إلى السعادة الأبدية، والفلاح السرمدي من حيث لا يحتسب[١] وذكر ابن الجوزي رحمه الله تعالى أقوالاً في من المعاني، قال أبو سليمان الخطابي: هو البر بعباده، الذي يلطف لهم من حيث لا يعلمون، ويسبب لهم مصالحهم من حيث لا يحتسبون، وقال ابن الأعرابي: اللطيف الذي يُوصِل

(١) السعدي، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان (٥٣/٢)

إليك أَرَبَكَ في رفق، ومنه قولهم: لَطَفَ اللهُ بك[١] وأفادت دلالة ﴿ٱلْخَبِيرُ﴾ بأن الله تعالى بأعمال عباده خبير، فلا تخفى عليه من أعمالهم خافية. والخبير من أسماء الله الحسنى، وهو من صيغ المبالغة التي تعطي معنى العالم بما كان وما يكون وما سيكون قبل أن يكون. والذي يدير خلقه وفق تدبير مُحْكَم. وأنه الذي لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء. وفي هذا تحذير لمن كفر، وبشارة لمن آمن، بأن الله تعالى عليم بأعمال عباده، وسيوفي كل أحد بما يستحق.

ومن دلائل ومعاني الخبير: العليم بدقائق مصالح عباده، وبمواضع ومصالح الأشياء جميعاً، وكذلك منافعها ومضارها، فلا تخفى عليه عَزَّ وجل بوادر الأمور، ولا عواقبها، فإن الله عَزَّ وجل خبير بما يناسب ويصلح لكل عبد من عباده، فيما هو قليل أو كثير، نوعاً ومقداراً، وحالاً وزماناً ومكاناً، فمعرفته عَزَّ وجل أكثر وأخبر من معرفة العبد بنفسه.

ثم يذكر تبارك وتعالى جليل إنعامه وامتنانه ببسطه وتسويته للأرض، الدَّال على عظمة خلقه، وعظيم تدبيره في شأن الأرض التي جعلها مبسوطة للأنام. فقال تعالى ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴾ فإن ربكم هو لا غيره الذي جعل لكم الأرض مذللة ومنقادة لكم، فاطلبوا الرزق من خلال سعيكم وتنقلكم في أرجائها، فإن مبعثكم وعودتكم من قبوركم سيكون لربكم عَزَّ وجل.

وقد بدأ البيان الكريم والامتنان العظيم باسم الإشارة ﴿ هُوَ ﴾ ثم تلاه الاسم الموصول ﴿ٱلَّذِى ﴾ لإفادة التعظيم بالتخصيص بأنه هو ربكم وحده لا شريك له ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ﴾ فهو وحده الذي أنعم وامتن عليكم، بأن ﴿ جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا ﴾ والجعل هو التسخير والتمكين، فبالرغم من قوة الأرض إلا أنه بقدرته وكرمه عَزَّ وجل سخرها لعباده، فجعلها طوعة لكم، تحرثونها وتزرعونها، وتنحتون وتحفرون فيها، وتُجْرُون الماء فيها، وتمشون عليها، فقد ألانها لكم، ومكنكم منها، بما تحققون فيها وبها مآربكم في حياتكم الدنيا. ومن غزارة ودقة البيان أن دلالة ﴿ ذَلُولًا ﴾ قد أفادت نفي الامتناع والصعوبة التي لا طاقة لهم بها، وجمعت بالمقابل جميع أنواع التسخير، من التذليل، والسهولة، والطواعية، مع كثرة الانتفاع وتنوعه.

ثم يوجههم سبحانه وتعالى إلى كسب الرزق فيها. فقال عَزَّ وجل ﴿ فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴾ فسيروا بالمشي والتنقل ﴿ فِى مَنَاكِبِهَا ﴾ والمنكب هو الجانب، فسيروا في جوانبها، وبين

---

(١) ابن الجوزي، زاد المسير في علم التفسير (٦٨/٣)

أرجائها، وطرقها، وأطرافها، وأوديتها، وجبالها، وقراها. بما يفيد إباحة التنقل، والاستمتاع بمنافعها. ثم حث عباده بذلك على الانتفاع بما فيها من الرزق. فقال تعالى ﴿ وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ ﴾ أي: كلوا مما خلقه ويسره لكم في الأرض.

ومن دقائق البيان أن نسب سبحانه وتعالى الرزق الذي على الأرض له عَزَّ وجل ﴿ وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ ﴾ فإنه منه لكم أيها الناس. فإنه رزقه الذي سخره لكم. كما ورد البيان بحرف التبعيض ﴿ مِن ﴾ بما يفيد كثرة وتنوع الرزق. وبما يفيد أيضاً: فتأكلون منه، ويبقى الكثير منه، وذلك لعظيم كثرة رزق ربكم. مما يتطلب أن لا تتحاسدوا، ولا تتخاصموا، فإن رزق ربكم يسعكم جميعاً، ويزيد عن حاجتكم. كما ورد فعل الأكل بصيغة الأمر ﴿ وَكُلُواْ ﴾ لإفادة الحث والإكرام منه لكم، وكذلك ورد الفعل بصيغة الجمع، لإفادة جميع العباد، بما يدل على أنه مهما أكلتم جميعاً فإنه كثير، وزائد عن حاجتكم. وهذا البيان الكريم من عظيم الوعظ بما أنعم من كثرة الإنعام والتفضل على عباده. مما يدل على عظيم عطاء الله تعالى لكم، فكلوا منه، واشكروه واعبدوه، ووحدوه، واتبعوا وأطيعوا رسوله محمد صلى الله عليه وسلم. فإن ربكم هو المستحق لشكركم بطاعته والامتثال له عَزَّ وجل.

ثم انتهت الآية الكريمة بموعظة عظيمة، فقال تعالى ﴿ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴾ أي: وإليه تُبعثون من قبوركم. بما يترتب على هذا الحساب والجزاء، الذي يتطلب الانضباط بشرعه الذي شرعه لكم، وأبلغكم به رسوله محمد صلى الله عليه وسلم. فإنكم محاسبون ومجزيون. وقد أعطت دلالة ﴿ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴾ قاعدة في الوعظ، وضبط الطاعة والتصرف بالامتثال لدين الله تعالى. حتى يحاسب العبد نفسه بدلالة ﴿ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴾ ويعظ نفسه عند إرادة الانحراف بقوله تعالى ﴿ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴾ ويمنع نفسه من التعدي بقوله تعالى ﴿ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴾ ويعظ من تعدى عليه بقوله تعالى ﴿ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴾ ويعظ كل منحرف بقوله عَزَّ وجل ﴿ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴾ فهي واعظة وضابطة لحياة الإنسان وتصرفاته. فنحمد الله تعالى على نعمة القرآن، وهذا الدين الحنيف، ونعمة رسوله محمد صلى الله عليه وسلم، وعلى جميع ما أنعم من الإنعام الذي يُعد ولا يُحصى. اللهم ارزقنا طاعتك، وشكرك، وتقبل منا إنك أنت السميع العليم، وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم.

وبعد أن وعظ تبارك وتعالى عباده بالترغيب، ينتقل إلى الوعظ لهم بالوعيد والتهديد لمن استمر في طغيانه وعصيانه وتمرده. فقال تعالى ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴾ هل ترون أنكم في مأمن من عذاب ربكم يا من كفرتم بربكم؟ ﴿ ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ سؤال استنكار إن كان

ذلك في حسبانهم وعقولهم، وسؤال يستثير التأمل والتفكر، وسؤال يقرر به عَزَّ وجل أن لا تأمنوا عذاب ربكم الذي فوق السماء ﴿ فِي ٱلسَّمَآءِ ﴾ ليظهر لهم عُلوه عَزَّ وجل، ودنوهم في الأرض، وأنهم تحت قدرته، فإن دلالة الذي في السماء تعني كمال السلطان وكمال القدرة والعظمة والشأن. كما أن دلالة الأرض تفيد أنكم في الدنو، وفي قبضة مَن هو في السماء الذي هو ربكم وخالقكم، ومدبركم. ﴿ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ ﴾ بأن يقلع ظاهر الأرض، فيجعل أعلاها في باطنها وأسفلها. ويجعل الذي في أسفلها في أعلاها. والخسف هو: انقلاب الظاهر باطناً، والباطن ظاهراً ﴿ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴾ فإذا بالأرض تضطرب وتتزلزل، وترتج بحركتها على خلاف ما هي عليه من السكينة والركود والهدوء. فعليكم أن لا تجعلوا أنفسكم في مأمن من عذاب ربكم إن لم تؤمنوا وتطيعوا رسولكم محمد صلى الله عليه وسلم. فإن الجميع في قبضة ربكم سبحانه وتعالى، فأطيعوا وامتثلوا أمر ربكم. مما يُعَلِّم الإنسان وجوب الخوف من ربه جَلَّ جلاله، فإنه على كل شيء قدير، فلا يظن أحدٌ أنه في مأمن من العذاب، فيتمادى في المعصية. فإن قدرة الله تعالى أعظم مما يتصوره العباد. فنسأل الله تعالى الأمن والسلامة والهداية والوفيق.

ثم يزداد الوعظ من الله تعالى بالتخويف والترهيب بوعيد آخر، فَذَكر جَلَّ جلاله وجهاً آخر من أوجه العذاب. فقال سبحانه وتعالى ﴿ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴾ أو أنكم ترون أنكم في مأمن من أن يرسل ربكم عليكم حجارة من السماء كما أرسلها على أصحاب الفيل، وعلى قوم لوط. وحينها ستعرفون بالعلم اليقين حقيقة إنذارنا لكم على عنادكم وجحودكم، وحينها لا ينفعكم هذا العلم.

وقد استهل سبحانه الآية الكريمة بالإضراب الانتقالي بحرف ﴿ أَمْ ﴾ الذي انتقل به من الاستفهام الإنكاري والتقريري بعذابه تعالى الذي مصدره من الأرض، إلى مثله من العذاب إلا أنه مختلف عنه من حيث الجهة والمصدر، والذي مصدره من السماء والعلو. وذلك لبيان عظيم قدرته جَلَّ جلاله، وتنوع مصدر عذابه عَزَّ في علاه. وترهيبهم من عذابه الذي قد يحل عليهم مما هم آمنون ومستمتعون به من الأرض، أو من عذابه الذي يأتيهم من العلو، من حيث لا يحتسبون. وهو إنكار عليهم أن يعتقدوا أنهم في مأمن من عذاب الله القوي العزيز.

وذكر تبارك وتعالى لهم نوع العذاب، بأنه الرياح المحملة بالحصباء ﴿ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ﴾ أي: ريحاً محملة بالحصباء التي هي ذرات الرمل، فترميهم بها. وقد أفادت دلالة السؤال ﴿ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ ﴾ أنه سؤال استنكار. أي: إن كان ذلك الأمان والمأمن في حسبانكم وعقولكم فأنتم مخطئون في التقدير؟

وهو سؤال يستثير التأمل والتفكر، وسؤال يقرر به عَزَّ وجل أن لا تأمنوا عذاب ربكم من جهة ﴿ ٱلْأَرْضَ ﴾ ولا من جهة ﴿ ٱلسَّمَآءِ ﴾ ليظهر علوه عَزَّ وجل، ودنوهم وقربهم من عذابه جَلَّ شأنه وهم في الأرض، فإنهم ليسوا عنه ببعيد عَزَّ وجل. وأنهم تحت قدرته، وسلطانه وقهره جَلَّ جلاله. فدلالة الذي في السماء تعني كمال القدرة والقوة والسلطان، والهيمنة.

ثم ينبههم تبارك وتعالى إلى أنه حين حصول العذب، ستدركون بالعلم اليقين ما أنذركم ربكم منه ﴿ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴾ فستعرفون حينها كيف هو ذلك النذير الذي جاءكم به رسولكم محمد صلى الله عليه وسلم. وقد أعطت دلالة ﴿ كَيْفَ ﴾ المزيد عن حال الأمر المتعلق بالإنذار من عذاب الله تعالى. وهي متعلقة بالْمُخَاطَب الجاحد، بأن يتأمل ويقلب الفكر حين يكون ذلك العذاب. ودلالة ﴿ كَيْفَ ﴾ في خطاب القرآن الكريم تستثير الذهن، ليتصور عاقبة الجحود، وقوة جراءة الجاحدين على الله تعالى وعلى رسوله صلى الله عليه وسلم بالتكذيب والإنكار للنذر والآيات والحجج ﴿ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴾ فحين يتحقق لكم مما أنذرناكم منه من العذاب، فستعرفون حينها كيف هو ذلك النذير الذي جاءكم به رسولكم محمد صلى الله عليه وسلم. مما يدل على نعمة هذا الإنذار، وما يجب من التأمل والتفكر، وما يعقبه من الاستنتاج والاستنباط. فإن هذا الإنذار والبيان هو وسيلة من وسائل المعرفة لاكتشاف الحقائق، وما تدل عليه.

وهو استفهام، يتوصل به الْمُخَاطَب إلى الدليل من خلال حال الأمم التي كذبت المرسلين. فقد حل بها العذاب، فهو استفهام سيأخذ بصاحبه إلى مشاعر التهويل من أحوال تلك الأمم، وحالهم فيما لو أصابهم ما أصابها، فكيف سيكون الحال؟ وكيف يصنعون وقد فاتهم فائدة الإنذار؟ فيما لو حل بهم عذاب الله تعالى كما حل بمن سبق ﴿ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴾ فإنها تحمل كذلك استفهام التوقف والتعجب من حال عنادهم.

﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ ﴾

وبعد البيان الكريم بالترغيب والإنذار والتهديد للكافرين، ينتقل بهم إلى الموعظة بما حل بمن سبق من الأمم المكذبة بالمرسلين. وما هذا التكرار بالمواعظ المختلفة إلا أنها بسبب رحمة الله تعالى بالعباد، لأنه يريد لهم الخير والنجاة من عذابه، وذلك بكثرة إرشاده لهم عَزَّ وجل. فيقول سبحانه وتعالى ﴿ **وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن**

﴿قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ فيا أيها الرسول صلى الله عليه وسلم إن حال هؤلاء المكذبين ليس بجديد ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ فإن الأمم السابقة لأمتك أيها الرسول صلى الله عليه وسلم قد كذبوا وجحدوا ما جاءهم من الحق. بل أورد الله تعالى تكذيبهم بحرف التحقيق والتأكيد ﴿وَلَقَدْ﴾ المسبوق بلام القسم، فقد كذبوا بما جاءهم من الحق ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ فليتأملوا كيف كان إنكار ربك عليهم، وذلك بما أصابهم من العذاب العظيم في هوله. كقوم نوح، وعاد، وثمود، وقوم لوط، وأصحاب الأيكة.

فأعادهم التوجيه الكريم بدلالة ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ إلى المزيد من التأمل والتفكر. وفي هذا استثارة للذهن بالتأمل في حال من سبق من الأمم الكافرة، وما حل بهم من العذاب. وكذلك بالتفكر في تبعات المآل، والتفكر في النتيجة، والتأمل فيما سيكون إن وقعت بهم مصيبة العذاب والهلاك، وأن عليهم أخذ العبرة من غيرهم، ففي ذلك استحثاث بأن يتصوروا موقفهم وحالهم قبل أن يكونوا مثلهم، مما يفيد أهمية التفكير في الحوادث وأخذ العبرة منها، وكذلك تقليب أوجه الأمر، قبل الدخول فيه، وأن منهج القرآن الكريم في أساليبه قائم على الحقائق، وعلى التدبر والتفكر، إذ يُوجِّه الْمُخَاطَب توجيهاً تأملياً، وتوجيهاً تدبرياً، بما يرفع من مستواه الفكري نحو التعقل، واستبصار طريق الحق بوضوح، للأخذ به بقناعة، حتى يتحقق له الفوز والنجاة من خلاله.

ثم يتدرج بهم الوعظ الرباني إلى عظيم تدبيره في خلقه، وعظيم صنعه، فيلفت انتباه المنكرين إلى الطير وهو يحلق في السماء، من غير أن يمسكه أحد عن السقوط. فقال تعالى ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ﴾ ألم يعتبر هؤلاء المكذبين بما يبين لهم عظمة الله تعالى في الطير الصغير الخفيف، الذي يتجول في جو السماء من غير أن يسقط بما يواجه من سعة الفضاء، واختلاف اتجاه الرياح في حركتها، وهو يفرد جناحيه في الفضاء ويقبضها، بضمها إلى جسده بعد بسطها وهو مُعلَّق في الهواء والفضاء، من غير أن يسقط، بل في حركة مستمرة ومتعاقبة لذلك. فإنه لا يحفظه ويمسكه إلا الله الرحمن الرحيم، سبحانه وتعالى. ألم يلفت ذلك انتباهكم على عظيم قدرة وعناية الله تعالى بهذا الطائر الخفيف الصغير، على كثرتها وتعددها؟ فهو سؤال يستثير جانب التأمل والتفكر الذي يقود إلى التعقل والتبصر. مما يبين أهمية التفكر في مخلوقات الله تعالى مهما صغرت، فإن فيها دروساً ومواعظاً عظيمة.

وقد بدأت المعالجة لعقولهم ولعقول غيرهم بالاستفهام الإنكاري، والمتضمن للتعجب من عدم فهمهم واستفادتهم من مخلوقات ربهم التي منها الطير. إذ في قوله تعالى ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟﴾ شد الانتباه، بتحريك البصر للنظر والتأمل، مع شد بقية الحواس إلى السماء، وإلى الطير وهي تحلق في هذا العلو العظيم. فشمل قوله تعالى

﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ ﴾ الرؤية البصرية بالبصر، ورؤية البصيرة بالتأمل والتفكر. ألم يشاهدوا ويعلموا كمال القدرة له عَزَّ وجل في هذا الطير الذي يحلق في السماء. فيستدلوا بذلك على عظمة خلقه وتدبيره، وعنايته حتى بالطير؟

فإن قوله تعالى ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ ﴾ استفهام مثير، يُعيد به الفكر والتفكر في خلقه جَلَّ جلاله. مما يفيد أهمية لفت ذهن المتعلم إلى المحسوس، ليستدل به على غيره من المحسوسات والمغيبات التي يتم إخباره عنها، وما يتعلق بها من الحوادث، ليرتقي عقله في التحليل والاستنتاج والاستدلال.

فهو استفهام استنكار وتعجب من جهلهم، وتغافلهم عن المحسوسات الدالة على عظمة تدبير الله عَزَّ وجل، وصدق ما يُخبَرُون به ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ فَوۡقَهُمۡ صَٰٓفَّٰتٖ وَيَقۡبِضۡنَۚ مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحۡمَٰنُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءِۭ بَصِيرٌ ﴾ فإن مَن كانت قدرته قد خلقت هذا الطير، والعناية به في الأرض، وفي السماء لهو عظيم في جميع تدبيره، وقهره، وأمره، وما أخبر به من المغيبات. ﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ فَوۡقَهُمۡ ﴾ والطير: اسم جنس، لجميع ما يطير في السماء. ألم يتأملوا في هذا الطير وهو فوقهم في السماء ﴿فَوۡقَهُمۡ صَٰٓفَّٰتٖ ﴾ أي: تصف أجنحتها في الهواء بإطلاقها وفردها ﴿وَيَقۡبِضۡنَ ﴾ ثم تقبض أجنحتها بعد البسط، فتضمها إلى جسدها، الذي هو الطيران بالتحليق في السماء، وبارتفاعات عالية، مع صغر أحجامها، وخفتها. فإنه ﴿مَا يُمۡسِكُهُنَّ ﴾ من الوقوع على الأرض ﴿إِلَّا ٱلرَّحۡمَٰنُ ﴾ فعلى كثرتها وتعددها فهو الذي يتولى رعايتها، كما يتولى رعايتكم وتدبير شأنكم، ومن ذلك أنه خلقكم لعبادته، وأرسل إليكم رسوله محمد صلى الله عليه وسلم. أفلا تبصرون وتتدبرون؟ كما أن قوله تعالى ﴿مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحۡمَٰنُ ﴾ يعطي معنى أنه لا يتولى شأن الطير غيره، وبالتالي ينفي به الشريك، وكذلك فإنه لا يتولى شأنكم أنتم وجميع خلقه غيره سبحانه وتعالى، فلا رب ولا إله، ولا معبود بحق إلا الله الرحمن الرحيم.

ومن جميل البيان وقوة دقته أنه عَزَّ وجل اختار اسم الرحمن مع حال عنايته بالطير. فإن هذا من رحمته التي احتوت وشملت حتى الطير في أجواء السماء. ومن ذلك رحمته بكم، حيث أراد بكم النجاة من السقوط في العذاب؛ كما هي عنايته بالطير حتى لا يسقط في الأرض، فيحصل له الهلاك. فإن في لفت الانتباه للطير هي لغاية ومغزى عظيم، وفي اسم الرحمن غاية عظيمة، تبين رحمته جَلَّ جلاله بخلقه أجمعين.

مما يبين أهمية التأمل والتفكر في مخلوقات الله تعالى، فإنها تزيد من الإيمان بالغيب، وتوسع مساحة الفكر، وتُجَلِّي الجهل عن العقل، وتنمي القدرة على الاستنتاج، والاستنباط، واستعمال مكونات وأساليب الفهم، من القياس، والمقارنة، والاستدلال بالشيء على غيره، والاستدلال بدلالة المشاهد على ما يتعذر

مشاهدته من الغيب، وبالمحسوس على غير المحسوس، وغير ذلك من الأساليب التي توسع الفهم وتمي العقل، وتوجهه إلى الحق والصواب، فترفع عنه الجهل، وسوء الفهم.

فقد أعادهم الله تعالى إلى ما يصحح أفهامهم، والارتقاء بعقولهم وتفكيرهم وقياساتهم، حتى ينتفي عنهم الجهل المركب المتولد من القياس الخاطئ. فمن تأمل فيمن أوجد المخلوق من غير شيء، وعنايته حتى بالطير وهو في جو السماء فإنه رحمن رحيم، وأن ما أخبر به من الغيب فإنه حق لا ريب فيه، وأنه قادر على إعادة الإنسان كما كان، فليست الإعادة بمستحيلة على من أنشأ الخلق ابتداء، واعتنى بهم من كل وجه وعلى كل حال.

ثم يعود سبحانه وتعالى بعباده إلى كمال علمه، ومعرفته بجميع شؤون خلقه. فقال تبارك وتعالى ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءِۭ بَصِيرٌ﴾ إن الله تعالى بكل مخلوقاته عليم بما يصلح لهم، وينفعهم. وبما يفيد استيفاء علمه وقدرته وتدبيره جلَّ جلاله لجميع مخلوقاته، بحيث لا يدخل على تدبيره سبحانه وتعالى نقص ولا خلل. وقد أفاد قوله تعالى ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءِۭ بَصِيرٌ﴾ حصر وقصر كمال العلم، واستيفاء دلالة معنى البصير بجميع خلقه أنها له وحده لا شريك له. فليس كل أحد من خلقه بكل شيء بصير. بل تقدمها نون التوكيد (﴿إِنَّهُۥ﴾ الملتصقة بالضمير العائد على الله سبحانه وتعالى، ليعطي بذلك كمال تحقق القدرة، والأهمية، والتفخيم والتبجيل والعظمة بأن الله تعالى ﴿بِكُلِّ شَيۡءِۭ بَصِيرٌ﴾ فربكم عليم ومحيط بكم وبكل شيء من خلقه، وبما يكون منكم ومن غيركم، فلا يخفى عليه منكم ولا من غيركم شيء أبداً. فَيُثْبِت لهم عَزَّ وجل كمال علمه بهم وبجميع خلقه. وبما يكون من الجميع. لإفادة التحذير والتهديد والترهيب لهم من التمادي مما هم فيه من الفجور والإنكار والتعالي.

كما أن دلالة ﴿بَصِيرٌ﴾ تجمع رؤية ربنا للعباد، وتجمع معها المعرفة بتدبير شؤون العباد. فيحقق لهم الخير إن كانوا مطيعين له سبحانه وتعالى، فيتحقق كريم العطاء والعناية، والنصر والتمكين والتوفيق، لأنه سبحانه وتعالى بصير بما كان ويكون وبما سيكون قبل أن يكون، وما هم عليه من الحق، وفي المقابل علمه بما عليه مستقبلهم قبل أن يكون. وهو البصير بكيف يحقق لعباده المؤمنين ما يحتاجونه في كل شأن. فإن في دلالتها لطائف عظيمة كريمة، فسبحانه الله العظيم، الخبير البصير. اللهم وفقنا وسددنا.

مما يبين أهمية بناء العلم على مقدمات وحقائق صحيحة، ليحصل على نتائج صحيحة، وأن من أخطأ في التصور، يُخطِئ في التحليل، ثم يترتب عليه الخطأ في الاستنتاج، ثم يخطئ فيما يقرره. وهذا دليل على رقي منهج الإسلام في المعالجة، وفي المحاكمة وفق الدليل المشاهد والمحسوس، وأنه دين علم وعقل وحقائق، وليس دين جهل وأهواء وتخمينات فاسدة.

ثم يتدرج البيان في مخاطبة المكذبين الجاحدين لدينه ورسوله صلى الله عليه وسلم ولكتابه القرآن العظيم بسؤال استفهام، يستنكر فيه غفلة واتجاه عقولهم، ليقررهم بأن ليست هناك قوة تستطيع أن تمنعهم من عذاب الله تعالى إن حاق بهم. فقال تبارك وتعالى ﴿ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴾ فهل جحودكم وكفركم كائن ونابع من اعتقادكم بأن هناك من ينصركم من دون الله ربكم؟ سؤال يقررهم بفساد اعتقادهم إن كانوا يعتقدون أن معبوداتهم من الأصنام وغيرها تستطيع أن تمنع عنهم عذاب ربهم عَزَّ وجل. ليقرر لهم تبارك وتعالى: بأنه لا قوة لها أن تمنع عذاب الله تعالى عنهم إن حاق بهم. فلن يمنعكم من مُراد ربكم شيء أبداً. فليس لكم من دون ربكم ولي ولا نصير ولا معين. فلولا رحمته لَعَجَّلَ لكم العقوبة.

ثم أوضح للمعاندين الكافرين سبب كفرهم وعناده. فقال تعالى ﴿ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴾ فإنهم يعيشون في وهم وخداع، لأن الغرور: هو مخادعة مبنية على اطماع وإيهام النفع والصلاح في أمر يحمل الضرر. وهو محبوب ومرجو فيما هو إضرار وفساد، فهو إظهار الشيء بغير حقيقته، رغبة في أخذه، أو ممارسته. فهو لون من المخادعة التي تُظهر الشيء على غير حقيقته، وترغيب النفس فيه. قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: والغَرُورُ بفتح العين، هو ما غَرَّ الإنسان من شيء، كائناً ما كان، شيطاناً كان أو إنساناً، أو دنيا[١] قال ابن كثير رحمه الله تعالى: لا يفتننكم الشيطان ويصرفنكم عن اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم، وتصديق كلماته، فإنه غَرَّارٌ كذاب، وأفاك[٢] فلا يغرنكم بالله عَزَّ وجل ما يزينه الشيطان لكم، فَيُزَيِّن لكم فعل الباطل، والتمادي فيه.

وبالتالي الحذر مما في الدنيا من المغريات والملهيات، التي تجذب الإنسان نحو السعي وراءها، وإشغاله بالمعاصي عن الحق. فيقضي وقته في متعة الدنيا الزائلة عنه بموته، أو ضعفه، أو زوالها عنه بأي وسيلة كانت، فإن المفارقة بينه وبينها متحققة، ومعروفة عند كل أحد من الناس. فلا تغتروا بالفائت عن الباقي والثابت. فلا تخدعكم الحياة بشبهاتها وشهواتها، وبلذائذها وفتنتها، قال سعيد بن جبير رحمه الله تعالى: غرور الحياة الدنيا: أن يشتغل الإنسان بنعيمها ولذاتها عن عمل الآخرة[٣] وفي تسميتها بالحياة الدنيا، ما يدل على أن هناك حياة هي أعلى وأرفع وأرقى وأميز من الدنيا، وهي الحياة الآخرة التي تلي الحياة الدنيا، والتي ليس فيها فناء، كما هي الحياة الدنيا. فإذاً لا تلتهوا بالحياة الدنيا عن الحياة الآخرة.

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٥٨٢/١٨)

(٢) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٥٥٥/٣)

(٣) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (٢٠٦/١٤)

ثم ينتقل البيان الكريم إلى شأن الأرزاق، ليحاج به الكافرين المكذبين بدينه وبرسوله صلى الله عليه وسلم. فيقول سبحانه وتعالى ﴿ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴾ فمن هو هذا الذي يستطيع أن يمدكم بالرزق إن أمسك الله تعالى عنكم رزقه؟ سؤال يعيد كل كافرٍ إلى حقيقة الربوبية والألوهية. وقد ورد الرزق عاماً ﴿ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ ﴾ ليشمل جميع ما ينتفع به الإنسان، وعلى رأس تلك الأرزاق المطر الذي هو رأس وأساس الخير والرزق في الحياة الدنيا. فمن هذا الذي يستطيع أن ينزل من السماء ماء لكم إن أمسك الله عنكم الأمطار؟ ﴿ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ﴾ فلا أحد من الخلق يقول: أن هناك أحد يمكنه ذلك. فيقرر الله تعالى بهذا السؤال التقريري كل أحد من الخلق بأنه لا أحد يستطيع أن ينزل الماء من السماء غير الله تعالى وحده لا شريك له. وبالتالي فلماذا إذاً لا تُوحِّدُون ربكم بالعبادة والإخلاص والطاعة، وتتابعون رسوله صلى الله عليه وسلم فيما جاءكم به من الحق. فهو أسلوب بياني عظيم؛ يقرر به عباده بوحدانية ربهم عَزَّ وجل، من خلال قصر الرزق عليه عَزَّ وجل بأدق البيان.

ثم يقرر سبحانه وتعالى أنه لا أحد يستطيع أن يرزق العباد غيره. ليقررهم بعنادهم الذي ألجأهم إلى الطغيان والهروب عن الحق. فيقول تبارك وتعالى﴿ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴾ بل تمادوا في استكبارهم وعنادهم ﴿ بَل لَّجُّوا۟ ﴾ بل اشتدوا في النزاع وفي الخصومة للحق، فتمادوا في عنادهم واستكبارهم ﴿ فِى عُتُوٍّ ﴾ أي: في طغيان من التكبر والاستعلاء ﴿ وَنُفُورٍ ﴾ أي: بالبعد والتباعد عن الحق وشواهده وأدلته وقبوله. فوصفهم البيان الكريم بأشد أنواع المبالغة في ردهم الحق. فكلمة ﴿ لَّجُّوا۟ ﴾ تعني: قوة التمادي. فقد تمادوا بعناد من الطغيان الشديد، الذي هو العتو ﴿ عُتُوٍّ ﴾ وكذلك النفور ﴿ وَنُفُورٍ ﴾ الذي دل على استخفافهم وطغيانهم. فقد وصف الله تعالى شأنهم مع الحق بأشنع وأقبح الأوصاف. مما يبين خطر التكبر، وأن الاستكبار قوة تمنع الإنسان من إرادة الحق. وأن التواضع هو الطريق لقبول الحق والعمل به، فهو الذي يكسر الكبرياء ويزيحه ويزيله. بما يعلم الإنسان أن يستمع بتواضع، وينظر بتواضع، ويقبل الحق في تواضع، ويعمل به في تواضع لله سبحانه وتعالى.

﴿ أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾ فَلَمَّا

رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴿٣٠﴾ ﴾

ثم ينتقل السياق إلى صورة أخرى من البيان الذي يستثير العقول نحو توضيح الحقائق، وتقرير الحكم بالحق أنه للحق وليس للباطل. فيقول سبحانه وتعالى ﴿ أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ هل الإنسان الذي يسير منتكساً ومنحنياً على وجهه خير وأحسن؟ أم أن الذي يمشي قائماً ومعتدلاً سوياً، فيرى ما أمامه بوضوح؟ سؤال استنكاري على من يساوي بينهما، ليقرر به الأصح الأهدى والأسلم. سؤال يستثير العقل والفكر والتأمل في دلالة هذا المثل المضروب للإنسان حتى يتعلم الحق وسُبُل الاهتداء، وكذلك منهجية الاستدلال، وطريقة التفكير الصحيح.

والْمُكِب هو المنحني، الذي انتكس رأسه للأسفل، فهو لا يستطيع أن يتلافى ما يكون في الطريق من العثرات، والهوام، والمزالق إلا وقد وقع فيها، فلا يمكنه أن يتحصَّن ويتوقى مهالك الطريق وعثراته. فهذا يمثل الكافر الذي يسير على غير هدى من الله تعالى، فتأخذه الأهواء، ومزالق الكفر، ليسقط في النار، الذي هو جزاء الكافرين في الآخرة.

فضرب الله سبحانه وتعالى بهذا المثل مسلك المؤمن الذي يرى الحق واضحاً جلياً، لأنه مستقيم في قامته أثناء سيره ومشيه في الدنيا. وأما مسلك الكافر فإنه يسير وهو في انكباب على وجهه، فلا يرى عثرات الطريق التي أمامه، فهو يتردى في المهالك المتنوعة في عظمتها وقوة شرها عليه. فأي الحالين أحسن سيراً واهتداء؟ سؤال يستثير العقل نحو التفكر والتبصر.

فهل هذا الْمُنكب على وجهه أهدى؟ ﴿ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ أم أن الذي يمشي ﴿ سَوِيًّا ﴾ أي: مستوياً في قامته، وهو ﴿ عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ أي: طريق واضح، قد انكشفت له عثرات وأهوال طريقه، فيتجنبها، ويبتعد عنها وعن مسالكها، فيسلك الطريق الآمن الذي يصل به إلى الهدف الصحيح بيسر وسهولة. فإن هذا هو المؤمن الذي يسير على منهج الله تعالى، فيتوقى عثرات الدنيا، من المحرمات والمكروهات، فإنه ملتزم ومهتدي بصراط الله تعالى الذي ينجو به من عثرات الدنيا ومفاسدها، فيصل به إلى الجنة في الآخرة، ويسلم في الدنيا من مفاسدها ومغرياتها. وذلك باتباعه لمنهج الله تعالى ودينه وشريعته.

فقد أوضح وكشف هذا المثال خيارين للإنسان: أحدهما: من يسير وفق نور الإسلام وهديه، والثاني: من يمشي في ظلمات الكفر وشتات الأمر. فهو مثال يرتقي بعقل الإنسان في التفكير، وفي الاختيار بأحسن وأفضل الأساليب البيانية، التي تدل على أن هذا القرآن هو نور وهداية للحق، وللنجاة في الدنيا والآخرة.

ثم يتدرج بهم التوجيه الكريم إلى إظهار عظيم نعمة الله تعالى على هذا الإنسان الذي يجب عليه أن يشكر ربه، ويطيعه ويمتثل لأمره أمام هذا الإنعام العظيم. إذ يستثير سبحانه وتعالى بعض نعمه التي منها: الخلق، وإيجاد حاسة السمع، والبصر والفؤاد. فقال تعالى مخاطباً رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يقول للكفرة الجاحدين بهذا البيان الرباني العظيم ﴿ قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَـٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ قل يا أيها الرسول، صلى الله عليه وسلم، لهؤلاء الكفرة الجاحدين: إن الله ربكم سبحانه وتعالى هو الذي أوجدكم من العدم. وجعل لكم حاسة السمع لتسمعوا بها الأصوات. وجعل لكم الأبصار لتبصروا بها الأشياء، وجعل لكم القلوب لتعقلوا بها. ومع هذا الإنعام الكبير فإنكم لا تؤدون حق النعمة بشكرها، باللسان، وبالقلب وبالامتثال، والطاعة.

فبدأ التوجيه بفعل الأمر ﴿ قُلْ ﴾ يا أيها الرسول صلى الله عليه وسلم: بأن ربكم ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ ﴾ هو الذي خلقكم من العدم. وقد بدأ بيان النشأة بدلالة الحصر والقصر ﴿ هُوَ ﴾ لا غيره ﴿ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ ﴾ والإنشاء دليل على الخلق بعد أن كانوا عدماً، لا وجود لهم.

ثم خص تذكيرهم بعد نعمة الإنشاء بثلاث أنواع من إنعامه عليهم سبحانه وتعالى. فقال عَزَّ وجل ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ ﴾ وهي الحاسة التي يسمع بها الإنسان المسموعات، من الأصوات والكلام، وهي أقوى مصدر التلقي للحقائق الصوتية، ليحصل بها التَّعَلُّم. ثم ذكر بعدها سبحانه وتعالى: البصر ﴿ وَٱلْأَبْصَـٰرَ ﴾ وهي الحاسة المتعلقة برؤية المشاهد والحقائق، ومظاهر الكون، فيرى بها الأحجام والألوان والأشكال. وهي الحاسة التي يُبصر بها الإنسان ما هو أمامه، على تعدد وتنوع الْمُبْصَرَات التي ينظر إليها، فيجمعها البصر ويحتويها في شكلها التي هي عليه كما هي في الحقيقة. فإنها نعمة عظيمة جليلة.

ثم النعمة الثالثة وهي: ﴿ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ﴾ التي هي: القلوب، والتي هي محط التفكير والتحليل والاستنتاج. وهي مجمع العواطف من الحب والكره والبغض، والميل والانصراف، وفيها يقع الخوف والطمأنينة، والرغبة والرهبة. وهي التي يُفضي إليها السمع بما سمع، والبصر بما رأى، ليكون منها القرار. فهي محطة وميدان التفكير والتأمل والقرار. فهي نعمة عظيمة جليلة.

ومن جليل دقائق البيان أن ورد السمع مفرداً ﴿ٱلسَّمۡعَ﴾ بينما ورد البصر والفؤاد بصيغة الجمع ﴿وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ﴾ وذكر ابن عاشور رحمه الله تعالى أنه قيل: الجمع باعتبار المتعلقات، فلما كان البصر يتعلق بأنواع كثيرة من الموجودات، وكانت العقول تدرك أجناساً وأنواعاً، جُمِعَا بهذا الاعتبار. وأُفرِد السمع لأنه لا يتعلق إلا بنوع واحد وهو الأصوات[1] وكذلك من أسباب وعلل الفوارق: أن أفادت الأبصار كمال القدرة على اجراء التنقل بين الأشياء المرئية، بينما السمع حاسة لا يستطيع الإنسان أن يختار أو يمنع ما يسمع تلقائياً، فكأنه آلة واحدة، فلا يسمع بها تفاصيل الأصوات إذا اختلطت على السامع، فإن تداخل الأصوات يمنع السامع من توجيه السمع لأحد هذه الأصوات دون غيره من الأصوات، ليفرده بالاستماع، وبالتالي أصبح السمع كأنه آلة واحدة مفردة. بينما البصر يستطيع الإنسان أن يحركه يُمْنَة ويُسْرَة، ويستطيع أن يحدق بعينه في شيء معين دون غيره، ويتنقل به بين المرئيات، فينظر به هنا وهناك. وكذلك الأفئدة، يستطيع أن ينشغل بأمر، وينتقل إلى أمر آخر، وثالث ورابع، ثم يعود للأول، أو الثالث، أو الثاني، وقد يربط بين بعضها البعض، وقد يُبعد ويُقصي منها ما يريد، فإنه لسعة مساحتها كانت في السياق على سبيل الجمع. وهذا من الإبداع والإعجاز في البيان، وفي علل المفارقات بين صياغة الألفاظ. فسبحان من أظهر الإعجاز في بيانه العظيم كما أظهره في خلقه العجيب العظيم.

وقد أبانت الآية الكريمة عظمة الله عَزَّ وجل في إبداعه، وعظمته في خلقه، بما يدل ويبين ويُظهر انفراده سبحانه وتعالى بالإنشاء والتدبير الذي قد تعاظم وتعالت فيه دقائق خلقه سبحانه وتعالى، والتي أظهرها وأبانها عَزَّ وجل في الإنسان من خلال ما خلق من السمع والبصر والأفئدة وغيرها من أجزاء مكونات جسم الإنسان، مما يتطلب إفراده عَزَّ وجل بما هو له من العبادة والإخلاص، لا بما أشرك به المشركون، مما هو عاجز عن نفسه، فضلاً عن تدبير شأن وأمر غيره.

وخص تبارك وتعالى هذه الحواس الثلاث من بين غيرها من أجزاء جسم الإنسان لما فيها من عظيم الدلالات، التي لو تأملها الإنسان في علاقة بعضها ببعض، أو تأملها منفردة، لاهتدى بها إلى الحق مباشرة، لِمَا لكل واحدة منها من الخصائص والفوائد والإنعام العظيم الذي يعجز عن إحصائها وحصرها الإنسان. ولو تأمل في العلاقة بينها وبين المحسوسات لأبهرته تلك العلاقة التي استوعبت كل حاسة فيها بما يناسبها من المحسوسات، ولو ربط العلاقة بين الحاسة ونوع المحسوس بها لوجد عظمة قيمة ذلك الترابط بما تحدثه له من جليل الإنعام. فموقع الفؤاد هو موقع المحلل والمستنتج لما يسمع ويرى الإنسان، ليقرر المناسب لِمَا سمع أو رأى من المسموعات والأصوات. فالقلب هو محل التفاعل مع الأشياء بعد إدراكها بحاسة السمع وحاسة البصر وبقية الحواس. لأن مركز العقل هو القلب، كما قال به جمع من العلماء، قال ابن كثير رحمه الله تعالى: والأفئدة هي العقول التي

(١) ابن عاشور، التحرير والتنوير (٧٩/٨)

مركزها القلب على الصحيح، وقيل الدماغ، والعقل به يميز بين الأشياء، ضارها ونافعها، وهذه القوى والحواس تحصل للإنسان على التدرج، قليلاً قليلاً، كلما كبر زِيد في سمعه وبصره وعقله، حتى يبلغ أشده[١] فالعقل هو مركز تحليل ما يأتي عن الحواس، ليصدر التوجه من خلاله. ولذلك قال عليه الصلاة والسلام (ألا وإن في الجسد مضغة، إذا صَلَحَت صَلَحَ الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب)[٢] والعلاقة بين الدماغ والقلب هي علاقة تواصل، فالدماغ مخزن للملكات، كملكة الحفظ والتذكر، وغيرها، والقلب هو الذي يعقل به الإنسان الأشياء، وهو محطة الارتكاز، وهو مجمع العواطف والقرارات.

ثم بعد بيان عظيم وجليل هذا الإنعام، ختم الله تعالى الآية الكريمة بقوله عَزَّ وجل ﴿ **قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ** ﴾ فمع كثرة هذه النعم، وتعدد أوجه فوائدها فإن الإنسان يقابلها بالقليل من الشكر ﴿ **قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ** ﴾ ما أقل شكركم لله تعالى على ما أنعم به عليكم[٣] فما تشكرون ربكم إلا شكراً قليلاً. وقيل: لا تشكرون البتة[٤] لا تشكرون ربكم إلا شكراً قليلاً، لا يُذكر مقابل ما أنعم به عليكم، فاكتسب قلة الشكر صفة: التحقير الذي لا قيمة له، مقابل هذا الإنعام العظيم الجليل، الذي لا يتناسب مع حجم النعمة والتفضل الذي تفضل به ربكم عليكم. والشكر يشمل دلالة الحمد باللسان، وبالعمل والامتثال بالطاعة لله تعالى، وكذلك بالقلب، وهو الاعتقاد الجازم بأن كل النعم هي من عطاء الله تعالى، فلا شريك له فيما أنعم.

وباعتبار مجمل سياق الآية فإن جملة ﴿ **قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ** ﴾ تأتي بدلالة أنكم لا تُقرُّون إلا بالقليل من آيات الله تعالى أيها المشركون، كالإيمان بخلق السماوات والأرض، وتجحدون الكثير من آيات الله تعالى التي منها السمع والأبصار والأفئدة التي يُوجب شكرها التصديق والإيمان بالرسول صلى الله عليه وسلم، وبالقرآن العظيم، وبالطاعة لله تعالى فيما يأمركم به، وينهاكم عنه. فواجبكم أمام هذه الآيات والحجج من النعم هو الامتثال بالشكر والطاعة، ونفي الشريك لربكم سبحانه وتعالى.

وتأتي بمعنى: ما تشكرون حتى الشكر القليل ﴿ **قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ** ﴾ فإنه لا يكون منكم حتى الشكر القليل. وهي الدلالة الأظهر مع حالة المشركين، والكافرين عموماً، كما ذكر القرطبي سابقاً: لا تشكرون البتة. فينفي عنهم الشكر أصلاً سبحانه وتعالى. وأما باعتبار جنس الإنسان، حيث منهم المؤمن ومنهم الكافر، فيكون

---

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٢/٦٠٠-٦٠١)

(٢) البخاري، الجامع الصحيح (١/٣٤) برقم (٥٢)

(٣) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٣/٢٦٢)

(٤) القرطبي، الجامع لأحكام القرآن (١٢/٩٦)

ما أقل شكركم لله ربكم أيها الناس على ما أنعم به عليكم. وذلك على اعتبار أن الشاكرين هم المؤمنون فقط، وهم الأقل عدداً من الكافرين. والكافرون هم الأكثر، فَمَثَّلُوا عدم الشكر من بين جنس الإنسان، والمؤمنون يمثلون القليل الشاكر من عموم جنس الإنسان. وهذا من بديع أوجه البيان، وغزارة دلالاته التي تدل على نوع ووجه من أوجه إعجازه سبحانه وتعالى في كتابه العظيم. وفي هذا حث وتحريض على الشكر بالقلب، وبالقول، وبالامتثال والعمل بالطاعة له سبحانه وتعالى.

ثم يذكر سبحانه وتعالى وجهاً آخر من عظيم قدرته، وعظيم امتنانه، وجلال تدبيره، بنشره لجنس الإنسان في الأرض، فقال تعالى مخاطباً رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يقول للكفرة الجاحدين بهذا البيان الرباني العظيم ﴿ قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ قل يا أيها الرسول صلى الله عليه وسلم لهؤلاء الكفرة بأن الله ربكم سبحانه وتعالى هو لا غيره الذي ﴿ ذَرَأَكُمْ ﴾ بإيجاده لكم على وجه الأرض، فليس لغيره شراكة في الخلق والإيجاد والنشر لكم في أرجاء المعمورة. بما ينفي به الشريك الذي عليه المشركون. وأن من إنعامه عليكم الدلة على عظيم قدرته ووحدانية ربكم سبحانه وتعال أنه بثكم ونشركم بالتناسل في أقطار الأرض.

والذرء في قوله تعالى ﴿ ذَرَأَكُمْ ﴾ يعني: الخلق والإيجاد على وجه الكثرة والاختراع الذي ليس له سابق ولا مثيل. مما يفيد ويقطع بأن جنس الإنسان ليس له مثيل سابق قبله. كما أن من عظيم قدرته جَلَّ جلاله أن جعل هذا النشر في أرجاء الأرض، بانتشارهم وتوزعهم في أرجائها، فإن في ذلك آية من آيات الله تعالى العظيمة، الدالة على أنه الخالق المدبر، والذي لا يُعبد سواه. كما قَصَرَت وحصرت الآية الكريمة بأسلوبها الدقيق هذا الخلق بأنه لله تعالى ﴿ قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ ﴾ هو الله تعالى الذي ذرأكم، وليس لغيره شراكة في الخلق والإيجاد والنشر لكم في أرجاء الأرض. مما ينفي به ما هم عليه من الشرك الذي يعتقد به المشركون.

ومن فوائد هذا التكثير بالنشر في الأرض، أنه يتحقق به التعارف بين الناس، ويتحقق به التعاون، ونقل المعرفة، والخبرات، والإنتاج، بالتجارة والنقل والتنقل، ويحصل به الإفادة العظيمة من بعضكم البعض. إذ يتمكن الإنسان بهذا الانتشار والتوزيع استغلال خيرات وثروات الأرض المتنوعة، والمبثوثة في أرجائها.

ثم يبين سبحانه وتعالى للعباد: أنه بعد الإيجاد والتكاثر وعمارتكم للأرض، فإنكم إلى ربكم عَزَّ وجل تُحشرون بعد الموت والفناء ﴿ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ أي: تُجمعون للجزاء، وذلك بأن يجمع الله تعالى الأولين والآخرين من قبورهم ليوم الحشر، فَيُجْمَعُون إلى ربهم سبحانه وتعالى، لموقف الحساب والجزاء. ومن دقائق البيان أنه لم يسم الفاعل الذي يقوم بحشرهم إليه سبحانه وتعالى ﴿ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ وذلك لتعظيم الموقف،

ولإبراز وإظهار يوم الحشر كواعظ وكنتيجة أنتم قادمون إليها أيها الناس لا محالة. وهو من الأساليب البيانية حين يُراد بها اشغال الذهن بالفعل عن الفاعل.

ثم يُخبر سبحانه وتعالى عن طغيان واستعلاء الكفرة المكذبين بيوم الحشر، وذلك بمواجهتهم لهذا البيان والإعلام عن الحشر، وما يتبعه من الحساب والجزاء، بالرد والاستنكار والتكذيب. فَيُوجِّهُون سؤالاً للمؤمنين عن موعد الساعة، على سبيل الاستهزاء والاستبعاد لذلك ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ فإن كنتم صادقين في قولكم، أخبرونا عن موعد وقوع الساعة والبعث والحساب. مما يبين أن المؤمنين قد تناولوا في وعظهم للكافرين بوجوب العمل للآخرة، وأن هناك بعث وحساب وجزاء، فيتساءلون سؤال استخفاف واستبعاد ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ فقد وردت مخاطبتهم للمؤمنين بصيغة الجمع ﴿ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ فإن كنتم صادقين في قولكم بالبعث، أخبرونا عن موعد وقوعه. مما يبين أن المؤمنين قد وعظوهم بوجوب العمل للآخرة، لأن هناك بعث ونشور، ثم حساب وجزاء.

فيرد الله تعالى عليهم بالأمر لرسوله صلى الله عليهم وسلم بما يقوله للمكذبين الجاحدين. والمؤمنون تبعاً له عليه الصلاة والسلام ﴿ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ قل لهم أيها الرسول صلى الله عليه وسلم جواباً لسؤالهم عن موعد البعث الذي هو يوم القيامة ﴿ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ ﴾ فإن علم هذا الموعد هو عند الله ربنا تبارك وتعالى. وقد حصر وقصر الجواب من الله عَزَّ وجل بأن العلم بموعد يوم القيمة عنده فقط جَلَّ جلاله. وذلك من خلال أداة الحصر ﴿ إِنَّمَا ﴾ التي أفادت حصر ذلك العلم على الله عَزَّ في علاه. وأن مهمة الرسول صلى الله عليه وسلم قاصرة على الإنذار فقط. حيث أمر الله عَزَّ وجل أن يقول لهم عليه الصلاة والسلام ﴿ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ فمهمتي أن أنذركم من ذلك اليوم، وما يتبعه من الحساب والجزاء. ليبين لهم أنه لا علم له البتة بذلك، ولا لأحد غير الله سبحانه وتعالى له العلم بموعد يوم القيامة. وبما يفيد أنكم تطلبون مني ما ليس لي به علم.

فمهمتي التي كلفني الله تعالى بها إنما تنحصر في أن أقوم بالإنذار الواضح المبين، فَأُبين وأُظهر لكم الحق بشريعة الله تعالى التي شرعها لعباده، وأن رسالتي التي أرسلني الله تعالى بها ظاهرة واضحة لكم، فما أخبرتكم به من علم الغيب هو دليل على أنه بوحي من الله تبارك وتعالى. وقد وصف الله تعالى ما ينذرهم به بأنه واضح جلي ﴿ مُّبِينٌ ﴾ لا غموض فيه، فهو ظاهر في حججه ودلائله وبراهينه، وبما يفيد أن دلائل نبوته صلى الله عليه وسلم ظاهرة ساطعة واضحة، وأنها مُبينة للحق بياناً واضحاً لا غموض فيه. فلا يكفر إلا المعاند، لقوة استكباره وحسده.

ومن دقائق البيان أن السياق أعطى إفادة القصر بأداة الحصر ﴿ وَإِنَّمَآ ﴾ التي حصرت مهمة النبي صلى الله عليه وسلم في الإنذار الواضح ببيانه للحق ﴿ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ بما يفيد اشتمال الإنذار على الحجج والبراهين المبينة لكم أنني نذير مبين. وبما يفيد أن مهمتي هي إبلاغكم بالنبأ العظيم، وهو ما يُوحَى إليَّ من الله عَزَّ وجل. وبما يعني: أن هدايتكم ليست من مسؤوليتي ومهمتي، فأنتم تتحملون مسؤولية أنفسكم، فمن اهتدى فلنفسه، ومن كفر فعليه أن يتحمل وزر كفره وشركه ومعصيته.

ثم يخبر الله تعالى بحال المنكرين للبعث عند قيام الساعة. فقال تعالى ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴾ فلما رأى الكفار أهوال يوم القيامة ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً ﴾ أي: قد اقترب منهم، فعاينوه عياناً لا ريب فيه. فهنا ﴿ سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ أي: ساءت بأن تغيرت من شدة الحسرة والندامة، وقوة الخوف والهلع، فظهر عليها سواد الخوف، وقوة الهلع. قال ابن كثير رحمه الله تعالى عن دلالة ﴿ زُلْفَةً ﴾: لما قامت القيامة، وشاهدها الكفار، ورأوا أن الأمر كان قريبا[١] وقال الشوكاني رحمه الله تعالى: قال أكثر المفسرين: المراد عذاب يوم القيامة، وقال مجاهد: عذاب بدر[٢] فالمقصود بذلك يوم القيامة، ولا يمنع شمولها كذلك ليوم بدر، لأنه عند الموت تسيء وجوه الكفرة، لما يرون من شدة ملائكة الموت معهم. فشملت الأمرين معاً.

ثم يخبر سبحانه وتعالى بما يُقال لهم عند معاينتهم ليوم القيامة وأهوالها وأحداثها، فقال عَزَّ وجل ﴿ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴾ أي: فقيل لهم من قِبل الملائكة: ﴿ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴾ أي: هذا اليوم الذي كنتم تطلبونه، وتستعجلون به على سبيل الاستهزاء والسخرية. مما يبين قوة الإنذار لجميع الكفار من ذلك اليوم. وهذا من رحمة الله تعالى أن يبين للناس الحقائق القادمة، حتى ينال كل أحد ما يستحق، من غير ظلم لأحد. فالحمد لله رب العالمين.

ثم يخاطب الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بما يقوله للكفار المشركين ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ قل يا أيها الرسول صلى الله عليه وسلم لهؤلاء المشركين المكذبين ﴿ أَرَءَيْتُمْ ﴾ فأخبروني إذاً، وأعلموني إن حصل لي ولمن معي من المؤمنين

(١) ابن كثير، تفسير القرآن العظيم (٤/٤٢٦)

(٢) الشوكاني، فتح القدير (٥/٢٦٥)

الهلاك من ربي أو رحمنا؟ فمن يمنع عنكم عذاب الله سبحانه وتعالى. فهو سؤال استنكار، يُنكر به عليهم استعجالهم ليوم القيامة. فإن موتونا وحياتنا ليس لها علاقة بما سيكون لكم.

وقد بدأ الخطاب الكريم بسؤال تقريري، يستثير به أذهان الكافرين ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ والتي تفيد الرؤية القلبية والتأملية. بمعنى أخبروني فيما اسألكم واستخبركم عنه، أرأيتم فيما لو حل الموت ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِيَ﴾ قال ابن جرير الطبري رحمه الله تعالى: قل يا محمد للمشركين من قومك ﴿أَرَءَيْتُمْ﴾ أيها الناس ﴿إِنْ أَهْلَكَنِيَ ٱللَّهُ﴾ فأماتني ﴿وَمَن مَّعِيَ﴾ من المؤمنين ﴿أَوْ رَحِمَنَا﴾ فأخَّر في آجالنا ﴿فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ من عذاب مُوجع مؤلم؟ وذلك عذاب النار. فليس ينجي الكفار من عذاب الله تعالى موتُنا، فلا حاجة بكم إلى أن تستعجلوا قيام الساعة، ونُزُول العذاب، فإن ذلك غير نافعكم، بل ذلك بلاء عليكم عظيم[١] فليس لكم ما يؤمنكم، فيمنع عنكم عذاب ربكم سبحانه وتعالى إذا حل ووقع بكم.

وهو سؤال استنكار، أي: لا يجيرهم ولا يمنعهم مجير ولا مانع من عذاب الله تعالى، وكذلك لن تنتفعوا بموتنا، إن توفانا الله تعالى وأبقاكم بعدنا، كما لن تنتفعوا ببقائنا إن أمد الله تعالى في حياتنا من غير إيمانكم. فحياتنا وموتنا لا نفع لكم فيها إن لم تؤمنوا. فتمنيكم لهلاكنا لا يتغير به مراد الله تعالى بمن بقي على كفره منكم. فسواء توفانا الله تعالى ومن معي من المؤمنين، أو أطال في آجالنا برحمته، فهل هناك مخرج ومنأى من عذاب الله تعالى للكافرين الجاحدين لدينه وآياته ورسوله صلى الله عليه وسلم؟ فإنه لا مخرج لكم من عذابه، فليس لكم مجير يجيركم، أي: يؤمنكم فيمنع عنكم عذاب ربكم سبحانه وتعالى إذا حل ووقع بكم. فليس لكم خلاص إلا بما تقدمون من التوبة والطاعة والامتثال لربكم عَزَّ وجل.

ثم يأمر الله تعالى رسوله صلى الله عليه وسلم بأن يقرر لهم تمسكه صلى الله عليه وسلم ومن معه من المؤمنين بإيمانهم، وتوكلهم على ربهم. وأنهم سيدركون من هو الذي على ضلالة واضحة بينة ﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ قل لهم يا أيها الرسول صلى الله عليه وسلم: ربنا ﴿هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ المتصف بالرحمة ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ صدقنا وأيقنا به ﴿وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ وعلى ربنا سبحانه وتعالى اعتمدنا في جميع شأننا.

---

(١) الطبري، جامع البيان عن تأويل آي القرآن (٢٣/١٣٧-١٣٨)

ثم يهددهم وينذرهم بأسلوب الإخبار والإعلام المتحقق ﴿ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ فستعلمون علم اليقين من هو منَّا الذي هو على غير هدى، فكان شأنه في حيرة وزوال عن القصد الصحيح، والسير على غير بصيرة، فكان في متاهة من الباطل. وسيتضح يوم القيامة من هو مِنَّا على الطريق الصحيح المستقيم من الهدى والحق، الذي هو سبيل الحق والرشاد. ففي هذا قوة بيانية في استثارة العقل للفهم والإدراك. وقد ورد البيان لهم بما يدعوهم إلى التأمل حيث كان السياق على سبيل الإنصاف، من التأمل والنظر. ﴿ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴾ فسيتبين لكم حقيقة أمرنا وأمركم.

ثم يختم الله تعالى سورة الملك باستثارة نعمة الماء، إن تم فقدها من الأرض. فقال تعالى ﴿ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴾ قل يا أيها الرسول صلى الله عليه وسلم لهؤلاء المشركين المعاندين المكذبين: أخبروني وأعلموني إن غار وبَعُد ماؤكم الذي تَرِيدُونَهُ للشرب والاغتسال، فتشربون منه، وتسقون بهائمكم وزروعكم؟ ماذا سيكون حالكم لو أبعد الله تعالى هذا الماء في الأرض، بجفافها، وقلت الأمطار؟ فمن منكم يستطيع أن يأتي به. هل هناك أحد غير الله تعالى يستطيع أن يأتي بالماء وأسباب وجوده وكثرته؟ سؤال يستثير الفكر والعقل نحو الذي أنعم على العباد بنزول الغيث.

فبدأ التوجيه الكريم بقوله تعالى ﴿ أَرَءَيْتُمْ ﴾ فأخبروني وأعلموني فيما ترون ﴿ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ ﴾ أي: الماء الذي تشربون منه، وتسقون به بهائمكم ومزارعك فيما ﴿ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا ﴾ أي: غائراً في بطن الأرض، فلا تستطيعون الوصول إليه ﴿ فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ ﴾ فمن يملك القدرة على أن يأتيكم بماء ظاهر على الأرض، تناله الدلاء، فيكون مقدور عليه منكم. سؤال يفيد تقرير نفي القدرة من أي أحد، فإذاً ليس لكم إلا الله تعالى، الذي أنعم عليكم بهذا الماء المقدور عليه منكم بفضله ورحمته. وفي هذا تذكير وتهديد بالجفاف، وقلة الأمطار. فعليكم أن تحمدوا ربكم، بطاعته سبحانه وتعالى. فإنكم تنعمون بنعم عظيمة، لم تفكروا في عظمتها، والتي منها الماء، فيما لو أذهبه الله تعالى عنكم. فكيف سيكون حالكم.

وأحمد الله تعالى وأشكره على ما أنعم به عليَّ من شرف هذا العمل، فوفقني على إتمام سورة الملك. ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم، وتُب علينا إنك أنت التواب الرحيم. والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله أجمعين.